MV. UA, VI, Tunis 2005

ابن أخي حِزام (حُزام)، أبو علي محمد بن أبي يوسف بن يعقوب

(ت 257هـ/ 870م)

المعلومات

عن ابن أخي حزام تكاد أن توصف بالمعدومة في المصادر المعاصرة والمصادر والمراجع التالية، فكل ما ورد عنه في الفهرست للنديم كتاب ابن أخي حِزام في البيطرة ألّفه للمتوكل، [أبو الفرج محمد بن إسحاق، الوراق، كتاب الفهرست للنديم، 377]، وكل ما نثبته في سيرته ملتقط من مصنفاته المحفوظة في المكتبات العربية والأجنبية.

فأصله من منطقة الختّل، الكورة الواسعة، الكثيرة المدن، الواقعة على تخوم السند ما وراء نهر جيحون، وتضاف إلى بلاد الهيطل [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2/ 346].

ويبدو أنه أجاد رياضة الخيل وبيطرتها في بلاده، ثم انتقل إلى الهند، وكان له خدمة لبعض ملوك الهند، فقد جاء في مقدمة كتابه مختصر من كتاب الخيل والفروسية، أنه صنفه بسماعه مادته من بعض ملوك الهند [ابن أخي حزام، مختصر كتاب الخيل والفروسية، مخطوط، محفوظ في خزانة الفاتح بالمكتبة السليمانية ـ استانبول، رقم 3156]، ثم كان انتقاله إلى بغداد، حيث عمل رائضًا لخيل الخليفة العباسي، المتوكل، 232 ـ 247هـ/ 847 ـ 862م، ثم رئيسًا لاسطبلات المتوكل وألّف له كتاب الفروسية والبيطرة، ونقرأ في تاريخ الرسل والملوك في حوادث سنة 251هـ/ 865م، أن ابن أخي حُزام قد شارك في إخماد الفتنة الكائنة في الأنبار، فقد ذكر كواحد من القادة مع آخرين، الذين خرجوا مع الحسين بن إسماعيل، قائد حملة الخلافة على الثائرين، وقُلِّدَ ابن أخي حزام، وعبد الله نصر مقدمة الجيش لمهاجمة الثوار، وكان ابن أخي حزام يتولى قيادة ألف فارس وراجل، فنزلت مقدمة الجيش بمكان البَشق المعروفة بالقاطونة وأحكمت الحصار [الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 9/ 320]، ويقال إنه تولى بعد ذلك رئاسة اسطبلات الخليفة المعتضد (279 ـ 289هـ/ 892 ـ 902م).

وهناك ملاحظة تستلفت النظر، فقد ورد في نهاية كتاب الفروسية والخيل أنه فرغ منه سنة 257هـ/ 870م، وعليه فإن سنة وفاته إما بعد 257هـ/ 870م، أو أنه توفي في خلافة المعتضد بالله، وهذا الخبر لم نعثر في المصادر ما يؤكده خلا ما كتبه أحد النسّاخ على صفحة عنوان المخطوطة ونصّه رئيس اسطبلات الخليفة العباسي المعتضد بالله، وهو ما نشك فيه.

وعلى أي حال، فإن غابت سيرته عن مؤرّخي وكتاب التراجم، فقد حفظت لنا المكتبات نسخًا عديدة من مصنفاته التي لا تزال

مخطوطة. وتبدو أهمية مصنفات ابن أخي حزام بأنه كان من أوائل الذين صنفوا في رياضة الخيل ورياضتها وتربيتها وتدريبها، ويعد كتابه الخيل والبيطرة من أقدم الكتب العربية التي لا زالت محفوظة في المكتبات. وذكر في مقدمته أنه «وهب له لطيف النظر، وسديد الفحص عما وضعه أهل النجدة والبأس».

وما وضعه في كتابه يحتاج إليه أهل الجهاد لذكر فنون علم الفروسية والرماية والمعرفة بالدواب وأحوالها والأسلحة، وكيفية يبدأ من أراد تعلم تعلّم الفروسية، وما يحتاج إليه الفارس من الآلات لمناوأة المشركين في سبيل الله.

آثاره

1 ـ كتاب الفروسية والبيطرة، ويعتبر من أوائل المصنفات العربية من نوعه، يقول ابن أخي حزام في مقدمته: «لقد كنت جرّبت كل العلاجات المفيدة عندما أسمع بحالة مرضية عند الحصان، وكنت أستفيد من جميع المصادر والمؤلفات القديمة. وكتبت هذا الكتاب الذي يضم ثلاثين بابًا، بحثت في معظمها في عيوب ومناقص الحصان، الخلقية والمكتسبة. ووجدت أنّ البغال والحمير والجمال حيوانات مفيدة في الحروب، لذلك كتبت في معالجتها ومشاكلها. كما أنني تطرقت في البحث عن الأغنام والأبقار». وفيما يلي كلام موجز عن أهم ما جاء في تلك الأبواب:

الباب الأول: تكلم فيه المؤلف عن بدء ظهور الأسنان عند المهر فقال: وبعد خمسة أيام من ولادة المهر تظهر الثنايا على فكه الأسفل، ثم يتبعها بعد فترة قصيرة ظهور الثنايا في الفك الأعلى. وعندما يبلغ عمر المهر الشهرين تظهر الربعيات، وفي عمر 8 ـ 9 أشهر يظهر في فكه الأعلى القارحان (أي النابان).

الباب الثاني: ويضم مبحثين، الأول: في صفات الحصان الجيد. ومنها أن يتوافر الطول في ثلاثة أعضاء منه وهي: الأذنان والرقبة والفخذان. كما يجب أن يتوافر الصغر في ثلاثة وهي: البطن وفتحتا الأنف والصدر، وأن يكون فم الحصان كبيرًا، وعرفه وناصيته ناعمين. والبحث الثاني: خصصه المؤلف للكلام عن عروق الحمير، فوصف ألوانها وشياتها، أي العلامات الفارقة بينها.

الباب الثالث: وفيه ذكر لأسماء وصفات الأعضاء والمناطق في جسم الحصان، ويشير المؤلف في هذا الباب أنه استعان ببعض ما جاء في المراجع اللغوية والأدبية العربية، وخاصة كتاب الخيل للأصمعي.

الباب الرابع: وعنوانه تربية الخيل، وهي تستند بالدرجة الأولى على معاملتها بالرفق والملاطفة، ويُبدأ بركوبها عندما تبلغ السنتين فما فوق. وحينما يتجاوز عمرها الأربع سنوات يمكن تحميلها بثقيل المتاع، على أن تتغذّى بصورة جيدة ومنتظمة. ثم تكلم بعد ذلك عن الطرق التي يجب اتباعها عند ركوبها والسير بها.

وللخيل طباع سيئة عدّدها ابن أخي حزام وهي: العضّ والرفس، واعتلاء الذكور منها الحمير والبغال. ثم ذكر الوسائل المتبعة في معاقبتها ومنها: ثقب أسنان الحصان الذي يعضّ، وربط الفرس الذي يرفس بالقرب من باب حديدي.